ابـــن بطوطـــة
عاشق الرحلات وصاحب الحكايات
١٣٠٤ م - ١٣٧٧ م

شاب متدين شـغوف بالمعرفة مولع بالسـفر محب للناس، اشـتاق لتأدية مناسـك الحج، وهو فى شـرخ الشـباب، وكانت بداية رحلاتـه الطويلة التى قطـع خلالها ٧٥ ألف ميل،واسـتغرقت حوالى ثلاثين سنة. لم يكن السفر بالنسبة له مجرد متعة شخصية، وإنما كان يجمع من كل البلاد التى زارها معلومات عن الحياة والطبيعة وعلاقات الناس، والعادات والتقاليد والطرائف، وفى النهاية أملاها على الأديب محمد بن جـازى الكلبى لتخرج لنا فى كتاب فريد مفيد تحت عنوان: «تحفة النـاظـر، فى غرائب الأمصار وعجائب الأسـفار»، إنه الرحالة المغربى المعروف «ابن بطوطة».

ولـد محمد بن عبد الله بـن محمد بن إبراهيم اللواتى – نسـبة إلى قبيلة لواتـه إحدى قبائل البربر – فى مدينـة طنجة المغربية فى يوم الاثنين السـابع عشر من شـهر رجب سـنة ٧٠٣هـ الرابع والعشرين من شهر فبراير سـنة ١٣٠٤ م من أب يعمل بالتجارة ويعيش فى سعة مـن العيش، ويهوى العلم والثقافة، شـديد الإيمان بالله، يقنع بالربح

القليل فى تجارته ويحرص على أن يكون أمينا صادقا فى كل معاملاته.

ورث الابن عن أبيه شـغفه بالعلم وحبه للثقافة وميله إلى التدين وشدة تعلقه بالمثل العليا والقيم الدينية.

اهتم الأب التاجر المثقـف المتدين بتعليم ابنه منذ نعومة أظفاره - مع أن التعليم لم يكن منتشرا فى بلاد المغرب آنذاك - فعهد به إلى أحد الشـيوخ ليحفظه القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشـريفة، وقواعد وآداب اللغـة العربية، وأبدى الطفل محمـد ذكاء ووعيا وحبا للمعرفة منذ صغره، فحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب وهو فى الثامنة من عمره تقريبـا. وكان لا يكتفى بحفظ القرآن دون تفهم معناه، بل كان يسـأل دائما عن معانى الكلمات والآيات وأسـباب تنزيلها، كذلك تمتع طفلنا النابه بقـوة الذاكرة والقدرة على الحفظ وروايـة الأحداث والحكايات والكتابة والإنشـاء لكنه لم يتم أو يستكمل دراسته، كما يقول الدكتور حسـين مؤنس فى كتابـه (المختار من رحلات ابـن بطوطة) وذلك لأن سـن الحادية والعشـرين التى خرج فيها محمد بن بطوطة للرحلة تدل على أنه لم ينتظر حتى يسـتكمل دراسة الفقه التى لم يكن يفرغ الشاب منها وينهيها إلا فى حدود الثلاثين. عاش محمد طفولته وصباه شغوفا بالمعرفة متدينا محبا لأولياء الله الصالحين متطلعا إلى رحلة الحج حتى يتم مناسـك الدين، وكان هاويا للسفر محبا لمشـاهدة الناس والسياحة فى الدنيا الواسـعة. وكانت رحلة الحج تحقق له الهدف الغالى والحلم البعيد.وفى سـنة ١٣٢٥ بدأ ابن بطوطة رحلة الحج ورحلاته الأخرى

التى اســتغرقت حوالى ثلاثين ســنة أو قليل ، ولم تكــن رحلة واحدة وإنما ثلاث رحلات واســعة النطــاق زار فيها ما عــرف فى زمانه من البلاد. وســاعده على نجــاح جولاته ورحلاته حبه للمعرفة وشــغفه بالســفر وإيمانه بالله وتدينه الشــديد، وقوة بدنـــه وقدرته على تحمل المتاعب، واســتعداده لتناول أى طعام، بــل واحتماله الصوم إذا أصيب بمرض، كذلك كانت له بعض المعرفة بالطب والأعشــاب المستخدمة فى علاج الأمراض، وكان يعالج نفسه بنفسه، بل ويعالج الآخرين أحيانا. وقــرأ ابن بطوطة رحلات ابن جبير وتأثر بهــا ونقل عنها، اهتم أيضا بكتابة مذكرات عن كل شىء يراه ويصادفه فى رحلاته، واتسمت كتابة مذكراته هــذه وملاحظاته بالدقــة والصدق فكتب عــن تقاليد وعادات الشــعوب التى زارها. ما أعجبه ومــالم يعجبه، وحياتها واقتصادها، ووصــف الطبيعة مــن أرض ومناخ وأنهار وبحــور وحيوانات وطيور، وكان خفيف الظل فى سرده لحكاياته ومشاهداته، صادقا فى كل شىء، حتى الصداع الذى شــعر به كان يكتب عنــه، وعن المغص ووجع البطن والرمــد الذى أصابه، وقد ميزه صدقه هذا وترجمته لحالاته النفســية والجسمية عن غيره من الرحالة والمستكشفين.

يقول الكاتب الإيطالى (ر.ســانجوينتى R.sanguinetti) فى كتابه الضخم عن ابن بطوطة والذى يقع فى جزءين وصدر سنة ١٨٧٤ : إن والد ابن بطوطة لم يوافق على سفره لأداء فريضة الحجّ إلا بعد أن استكمل ابن بطوطة دراسته الواسعة فى الدين الإسلامى وقواعد الشريعة الإسلامية،

وآداب اللغــة العربية، ولعل أباه وعده بأن يزوده بكل ما يلزم لرحلته مــن مال إن هو اســتكمل تعليمه، ولذلك بذل ابــن بطوطة جهدا كبيرا حتى انتهى من دراسته بتفوق عظيم وفى فترة وجيزة، كان يصل الليل بالنهــار فى المذاكــرة، وعندما يغلبه النعاس يضع رأســه فوق الكتاب برهة من الوقت ثم ينهض ويغســل وجهه ويســتعيد نشــاطه، وهكذا الإنســان عندما يكون لديه هدف واضح عزيــز يكافح من أجل تحقيقه ويتعــب من أجل الوصول إليه كانت رحلة الحجّ تســتغرق مايقرب من العام فــى الذهاب والعودة بمــا فيها فترات الراحة. غــادرت القافلة التى صحبها ابن بطوطة مدينة طنجة المغربية سـنة ٧٢٥ هـ ١٣٢٥م، وكان ابن بطوطة من الشــخصيات المرموقة فــى تلك القافلة. وربما كان الشــخصية الأولى، إذ أن بجانب مركز أبيــه التجارى والاجتماعى فإن صاحبنا ابن بطوطة تمتع بشخصية قوية وعقلية متفتحة ثقافية وفهمه للقانون رشحه وهو فى هذه السن الصغيرة لأحد مناصب القضاء الشرعى بمدينة طنجة، ويقول البعض نه تولى فعلا شئون القضاء بضعة شهور وأظهر كفاءة عظيمة وعدالــة كانت مضرب الأمثال مما كان يتوقع معه مســتقبلا باهرا بارزا له، لكنه ضحى بكل ذلك فى سبيل إشباع هوايته للسفر والترحال.

على الرغم من ازدياد عدد القافلة ظل ابن بطوطة الشخصية المرموقة والزعيــم الروحــى والدينى للجميع. كانوا يســتفتونه فــى كل ما كان يعرض لهم من مشكلات، وعندما وصلت القافلة إلى مدينــة «قسنطينة»

استدعاه حاكمها ليأخذ رأيه فى بعض المشكلات الشرعية التى اختلف عليها فقهاء المدينة، وأكرمه فمنحه دنانير من الذهب، وصرح ابن بطوطة للحاكم أنه لن يقتصر على الذهاب إلى مكة المكرمة فحسب ولكنه ينوى الذهاب لاستكشاف بلاد الحبشة والهند والصين وغيرها من الأقطار لتوثيق الصلات بينها وبين العرب، وللعمل أيضا على نشر الدين الإسلامى فى هذه البلدان.

وسر حاكم «قسنطينة» سرورا عظيما حين سمع ذلك من ابن بطوطة وزاد فى إكرامه وخلع عليه ملابس فاخرة، كما زوده بأشياء كثيرة تساعده فى رحلته.

قام ابن بطوطة بثلاث رحلات كبيرة بدأها سنة ١٣٢٥ حيث قام برحلته الأولى التى استغرقت ٢٤ سنة، فخرج من طنجة إلى مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر، ثم فلسطين ولبنان وسوريا والحجاز. وحج حجته الأولى. ومن مكة سافر إلى بلاد العراق وتركيا. ثم عاد إلى مكة فحج حجته الثانية ودامت إقامته فى أرض الحجاز سنتين. ثم رحل إلى اليمن وإفريقيا الشرقية، ثم عاد إلى جنوبى الجزيرة العربية حتى الخليج الفارسى فقام بزيارة سلطنة عُمان والبحرين والأحساء. ثم عاد ورجع إلى مكة فحج حجته الثالثة.

وخرج ابن بطوطة بعد ذلك من مكة إلى بلاد الهند؛ فمر بإيران وخراسان وتركستان وأفغانستان والسند. وتولى القضاء فى دلهى على المذهب المالكى للسلطان محمد شاه، انتهز ابن بطوطة الفرصة عندما

قرر السلطان محمد إرسال وفدا إلى ملك الصين فالتحق به وذهب معه. وفي عودته مر بجزيرة سرنديب والهند والصين. ومن ثم عاد إلى بلاد العرب عن طريق سومطرة سنة ١٣٤٧، فزار بلاد تركيا والعراق وسوريا وفلسطين، ومنها مرة رابعة إلى مكة، ليحج حجته الرابعة، واشتاق ابن بطوطة للعودة إلى وطنه المغرب بعد هذه السنوات الطويلة، فمر بمصر وتونس والجزائر ومراكش ووصل إلى المغرب سنة ١٣٤٩، أى بعد أربع وعشرين سنة هى رحلته الأولى.

يبدو أن ابن بطوطة لم يعد يحب الاستقرار أو الراحة بل كان يهيم بالسفر والترحال فلم يمكث فى بلده كثيرا حتى قام برحلته الثانية القصيرة إلى بلاد الأندلس سنة ١٣٥٠ فمر بجبل طارق وغرناطة ثم عاد إلى فاس.

أما رحلته الثالثة فاستغرقت سنتين (١٣٥٢ - ١٣٥٤) وكانت إلى بلاد السودان. ويعتبر ابن بطوطة أول رحالة كتب عن مجاهل إفريقيا المتوسطة.

السؤال الذى يفرض نفسه على قارئ أو دارس رحلات ابن بطوطة هو من أين كان يأتى ابن بطوطة بمصاريف رحلاته وحياته فى هذه الدول؟

فى بداية رحلاته كان ابن بطوطة يملك مالا قليلا الذى منحه والده إياه. لكن الرحلات تحتاج إلى مال وفير من هنا كان الرجل فى حاجة دائمة لمن يساعده ويستضيفه. يقول الدكتور حسين مؤنس فى كتاب

«المختار من رحلات ابن بطوطة» مهرجان القراءة للجميع سنة ١٩٩٦ ص ١٥ :

«هذا الرجل قطع هذه المسافات الطويلة دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله، ووجد في كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام، لا على سبيل التكرم والتفضل، بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة وقامت على رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة:

ذلك هو نظام الزوايا والمدارس والرّبط - جمع رباط - وهى دور ضيافة ينشئها رجال الطرق الصوفية أو بعض أهل الخير أو كبراء أهل الدولة من مالهم الخاص، وقد تنشئها الجماعة نفسها. وتتولى أمرها ورعاية النازلين بها من أموال تجمع لهذا الغرض. وقد فعلت الأمة ذلك تنفيذا لما نص عليه القرآن الكريم مرة بعد مرة من رعاية ابن السبيل وإكرامه وإطعامه؛ وابن السبيل هو المسلم الغريب عن وطنه المسافر على الطريق الذى يحتاج - إلى جانب الطعام والمأوى - إلى أن يشعر بأنه بين أهله وإخوانه فى أى ركن من أركان عالم الإسلام كان..».

يضيف الأستاذ أنيس منصور فى كتابه «أعجب الرحلات فى التاريخ» ص ٦٥ ، ٦٦ :

«كان لابن بطوطة طريقة معروفة فى كل البلاد التى يذهب إليها أنه يسأل عن القاضى: السلام عليكم - وعليكم السلام.. أنا فلان قادم من الغرب فى طريقى إلى مكة المكرمة.. أو كنت فى مكة والمدينة. ويكون الجواب: أهلا وسهلا.. ضيفا علينا ثلاثة أيام. ويقول ابن بطوطة:

إن معــى عــددا كبيرا مــن الأتبــاع والخدم والــدواب ويقــول القاضى أو الســلطان: كلهم ضيوفي! ولايجد بن بطوطة حرجا فى أن يقول له: ولكن هناك مشكلة بسيطة.

يقول المضيف: بسيطة إن شاء الله.

إننى مدين لفلان بعشرين ألف دينار.

يقول المضيف ندفعها عنك بإذن الله!

وهكذا فى كل رحلات ابن بطوطة التى اســتغرقت أكثر من تســعة آلاف يوم لم يدفع فيها مليم واحدا من جيبه.. وإنما هو بلطفه وظرفه وبراعته ينقل الفلوس من جيوب السلاطين والقضاة إلى أكراش التجار..

وفــى أكثر مــن مرة كان يدعى المرض وعندما يســأل عنه الســلطان يقول: قلبى يوجعنى يا مولاى! ويشــير ابن بطوطة إلى جيبه!.. وكان ابن بطوطة يعمل قاضيا للمسلمين فى كل البلاد التى ذهب إليها، وكان إذا سمع عن شىء غريب طلب أن يراه أو يكون قريبا منه. كانت حياته كلها من أجل السفر ومن أجل أن يرى أكثر ليروى للناس بعد ذلك».

لم تكن رحلات ابن بطوطة نزهة سياحية ترفيهية إنما كانت رحلة عمل ودراســة واستكشاف، ولعلنا نقدر كيف كان يتحرك من مكان إلى آخــر. ومن بلد إلى أخرى إبان ذلك الزمن الذى لم يعرف الســيارة ولا الطيارة؟ وإنما كان يمشى ويركب البحر والحيوان. ويقضى الأشهر فى المواصلات والمعاناة. ومع ذلك كان ابن بطوطة ســعيدا برحلاته عاشــقا للمعرفــة باحثا عن كل جديــد، وكان يتزوج فى كل بلد يزوره ثم يطلق

زوجته قبل الرحيل، وبلغ عدد زيجاته ٢٣ مرة أنجب خلالها سبعين ولدا وبنتا.

وهذا الزواج منحه خبرة عن المرأة في كل مكان، فهو يقول عن بنات الفرس: إنهن أقدر نساء العالم على التفنن في حركات العشق، ونساء المالديف يفضلن المشي عاريات الصدر، والشيء الغريب الذي شاهده هناك نساء لهن ثدي واحد! فهو يقول ويحكي:[1]

«في بعض تلك الجزائر رأيت امرأة لها ثدي واحد في صدرها ولها ابنتان إحداهما كمثلها ذات ثدي واحد. والأخرى ذات ثديين، إلا أن إحداهما كبير فيه اللبن، والآخر صغير لا لبن فيه. فعجب من شأنهن..».

أجمع النقاد والأدباء على ذكاء وفطنة ابن بطوطة وأمانته في سرد الحوادث والحكايات والمشاهدات المختلفة المتباينة عن الإنسان والبنات والحيوان والأماكن المختلفة والظواهر الطبيعية والجغرافية، ومع ذلك تسرب الشك إلى بعض الكتاب والعلماء فيما كتبه، ومنهم ابن خلدون، بل إن كاتب الرحلة «ابن جزي الكلبي» الذي أملى عليه ابن بطوطة رحلاته قال: أوردت جميع ما أورده عليّ من الحكايات والأخبار، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار.

كان ابن بطوطة يدون خلال رحلاته مذكرات خاصة بكل ما يرى

---

(١) كتاب رحلة ابن بطوطة المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» طبعة كتاب التحرير (١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م) ص ٣٩٤.

ويسمع حتى لاينسى شيئا ـ وكان على دراية بالكتابة، بل ويتمتع بأسلوب جميل شيق، وعندما نتهى من رحلاته اتصل بالسلطان ابن عنان وأقام فى حاشيته يحكى للناس عن عجائب أسفاره وغرائب العالم الذى زاره، وكان الناس يتجمعون حوله للتمتع بما يروى، ووصل ذلك للسلطان فأمر كاتبه الأديب (محمد بن جزى الكلبى) أن يكتب ما يمليه عليه ابن بطوطة وانتهى من ذلك سنة ١٣٥٦ م، وأطلق عليها «تحفة النظار، فى غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار» وقد يعجب المرء من أن يملى ابن بطوطة رحلته ولا يكتبها بنفسه مع وجود مذكراته وقدرته على الكتابة! ويفسر ذلك الأستاذ كرم البستانى فى كتابه «رحلة ابن بطوطة» الصادر عن دار الصياد ببيروت فيقول: «ولما كان الهنود قد سلبوا ابن بطوطة فى بعض جولاته فى الهند كل ماكان قد دونه فى مذكراته، أملى عن ظهر قلبه ما تذكره على كاتب السلطان محمد بن جزى الكلبى، وهذا مايفسر لنا مايرى فى سياق رحلته من بعض هفوات جغرافية ومبالغات».

عندما زار ابن بطوطة مصر وصفها وصفا جميلا قال[1]:

«هى أم البلاد، وقرارة فرعون ذى الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة. والبلاد الأريضة الخيرة المتناهية فى كثرة العمارة، المتباهية فى الحسن والنضارة، مجمع الصادر والوارد، ومحط رحل الضعيف والقادر. وبها

(١) كتاب «تحفة النظار فى غرائب لأمصار وعجائب الأسفار» الذى سبق ذكره ص ٣٢ ، ٣٣.

ماشئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف. تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها، شبابها يجد على طول العهد، وكوكب تعديلها لايبرح عن منزل السعد. قهرت قاهرتها الأمم، وتملكت ملوكها نواصي العرب والعجم. ولها خصوصية التى جل خطرها وأغناها..».

الطريف أن ابن بطوطة هاله زحام مصر وكيف أنها تضيق بسكانها وتموج بهم كموج البحر، ولا أعرف ماذا كان يمكن أن يقول لو زار مصر هذه الأيام والسنوات وشاهد زحام هذه الآونة؟!.

ويستطرد ابن بطوطة فى وصف مصر فيقول:

«ويقال إن بمصر من السقائين على الجمال اثنى عشر ألف سقاء، وأن بها ثلاثين ألف مكار، وأن بنيلها من المراكب ستة وثلاثين للسلطان والرعية، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق. وعلى صفحة النيل مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة، وهو مكان النزهة والتفرج، وبه البساتين الكثيرة الحسنة.

وأهل مصر ذوو طرب وسرور ولهو، شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده، فزين كل أهل سوق سوقهم، وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير، وبقوا على ذلك أياما..».

من الطبيعى أيضا أن يعبر ابن بطوطة عن إعجابه الشديد بالأهرامات ونيل مصر ومنفلوط وملوى وأسيوط وقنا والأقصر.

فــى موضع آخر من الكتــاب الذى خرج به مــن الرحلة وهو كتاب «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأســفار» يصف ابن بطوطة مدينـة «دمشق» فيقول:

«دمشــق هى التى تفضل جميع البلاد حســنا وتتقدمها جمالا وكل وصف وإن طال فهو قاصر عن محاسنها، ولا أبدع مما قاله أبو الحسين ابن جبير رحمه الله تعالى فى ذكرها قال:

وأما دمشــق فهى جنة المشرق، ومطلع نورها المشرق، وخاتمة بلاد الإســلام التى اســتقربناها. وعروس المدن التــى اجتليناها، قد تحلت بأزاهير الرياحين، وتجلت فى حلل سندســية من البســاتين، وحلت موضع الحسن بالمكان المكين وزينت فى منصتها أجمل تزيين، وتشرفت بأن أوى المســيح عليه الســلام وأمه منها إلى ربوة ذات قرار معين: ظل ظليل وماء سلسبيل..».

كانت زيارة ابن بطوطة للهند والصين زيارة دهشة وعجب وإعجاب للعادات والتقاليد والمشاهد الغريبة التى شاهدها، وربما لم يكن يصدقها لولا أنه شاهدها بنفسه، فهو يعبر عن دهشته من عادات الهنود حرق جثــث الموتى، بــل وحرق زوجات الميت حية مــع جثة زوجها، يقول ابن بطوطة فى كتابه:

«رأيــت الناس يهرعون فســألتهم ما الخبر؟ فأخبرونــى أن كافرا من الهنــود مات وأججت النار لإحراقه، وامرأته تحرق نفســها معه. ولمــا احترقا جاء أصحابى وأخبرونــى أنها عانقت الميت حتى احترقت

معــه! وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبــة، والنــاس يتبعونها من مســلم وكافر. والأطبــال والأبواق بين يديهــا، ومعها البراهمة وهم كــبراء الهنــود. وإذا كان ذلك في بلاد السـلطان، اســتأذنوا الســلطان في إحراقها، فيأذن لهم فيحرقونها.. ثم اتفق بعد مدة أني كنت بمدينة أكثر ســكانها الكفار، وأميرها مسلم من سامرة السند، وعلى مقربة منها الكفار العصاة. فقطعوا الطريق يوما وخرج الأمير المسلم لقتالهم، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار. ووقع بينهم قتال شــديد مات فيه من رعية الكفار ســبعة. وكان لثلاثة منهــم ثلاث زوجات، فاتفقن على إحراق أنفســهن. وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب.لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهلها شرفا بذلك ونسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفسها لبست خشــن الثياب، وأقامت عند أهلها يائسة ممتهنة لعدم وفائها، ولكنها لاتكره على إحراق نفســها.. ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على إحراق أنفسهن. أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب، كأنهن يودعن الدنيا. وتأتي إليهن النساء من كل جهة، وفــي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحــدة منهن بفرس فركبته وهي متزينة متعطرة، وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها. وفي يســراها مرآة تنظر فيها وجهها.

والبراهمــة يحفون بهــا، وأقاربهــا معها، وبين يديهــا الأطبال والأبواق والأنقار، وكل إنسان من الكفار يقول لها:

أبلغى السلام أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى، وهى تقول نعم وتضحك لهم، وركبت مع أصحابى لأرى كيفية احترافهن. فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار، متكاثف الظلال. بين أشجاره أربع قباب، فى كل قبة صنم من الحجارة، وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال، وتزاحمت الأشجار، فلا تخللها الشمس. ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصهريج، وانغمسن فيه، وجردن ما عليهن من ثياب وحلى فتصدقن به. وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط، فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها، والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض، وصب عليها زيت الجلجلان - زيت من الكزبرة والسمسم - فزاد فى اشتعالها.

وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار. وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة، وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم، لئلا يدهشها النظر إليها.. فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف، وقالت لهم وهى تضحك: أبالنار تخوفوننى؟ أنا أعلم أنها نار محرقة، ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار، ورمت بنفسها فيها، وعند ذلك ضربت الأطبال والأنقار والأبواق، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها، وجعل الآخرون الخشب من فوقها لئلا تتحرك وارتفعت الأصوات،

وكثر الضجيج. ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسى لولا أصحابى الذين تداركونى بالماء فغسلوا وجهى وانصرفت.. وكذلك يفعل أهل الهند أيضا فى الغرق. يغرق كثير منهم أنفسهم فى نهر الكنك. وهو الذى إليه يحجون: وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرقين، وهم يقولون إنه من الجنة. وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره: لاتظنوا أنى أغرق نفسى لأجل شيء من أمور الدنيا، أو لقلة مال، إنما قصدى التقرب إلى كنساى أى الله، ثم يغرق نفسه، فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده فى البحر المذكور..».

أما عن رحلة ابن بطوطة إلى الصين فلم تكن أقل دهشة وتعجب من الهند، وعن الصين قال فى كتابه:

«دجاج الصين وديوكها ضخمة جدا، أضخم من الإوز عندنا، وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الإوز عندنا. وأما الإوز عندهم فلا ضخامة لها. ولقد اشترينا دجاجة أردنا طبخها، فلم يسع لحمها برمة واحدة، فجعلناها فى برمتين، وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود، وملك الصين تترى من ذرية تنكيزخان، وفى كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون فيها بسكناهم، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها، وهم معظمون محترمون. وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب، ويبيعونها فى أسواقهم. وهم أهل رفاهية وسعة عيش، إلا إنهم لا يحتفلون بمطعم ولاملبس. وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة عليه جبة قطن خشنة..».

لاشك أن قراءة كتاب ابن بطوطة متعة حقيقية لكل قارئ، فحكاياته لطيفة طريفة فيها العجب والدهشة. مع شيء من الواقع الإنساني الضاحك الباكي، والعادات والتقاليد البالية التي لم يعمل فيها الإنسان العقل، وهي تعرفنا وتؤكد لنا أن العقل زينة، وأن الإنسان عندما يترك عقله ويهمله فإنه يفقد شخصيته وهويته، ويصبح لعبة ودمية في المجتمع، بل يصبح شهيدا للعادات والتقاليد البالية الساذجة.

لقيت رحلات ابن بطوطة صدى عربيا وعالميا قويا. وترجم كتاب «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» إلى عدة لغات منها اللاتينية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والتركية وغيرها، وشهد بأهمية الكتاب الرحالة الشهير «سيتزن» فقال عنه:

«أي سائح أوربي يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطة في البحث لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة، وتحمل من مشاق الأسفار ما تحمله بصبر وثبات وشجاعة.. بل أي أمة أوربية كان يمكنها منذ خمسة قرون أن تجد من أبنائها من يجوب البلاد الأجنبية. وفيه من الاستقلال بالحكم والقدرة على الملاحظة، والدقة في الكتابة، مالهذا الرحالة العظيم.».

وقد أطلق عليه العلامة «دوزى» لقب الرحالة الأمين.

كان ابن بطوطة بالفعل صادقا مع نفسه، وبالتالي صادقا في كتاباته لأنه قام برحلاته هذه بمحض إرادته ليرى العالم بعد أداء فريضة الحج، وقد ساعده في ذلك تربيته الدينية وما ورثه عن أبيه من شدة

الإيمـــان بالله والتعلـــق بالمثل الأخلاقية، من هنـــا كانت أهمية رحلاته وكتابـــه الضخم.. وقـــد رحل ابن بطوطة، محمد بـــن عبد الله بن محمد ابن إبراهيم اللواتي. الملقب بشمس الدين عن عالمنا سنة ١٣٧٧ عن عمر يناهز الثالثة والسبعين في مدينة فاس بالمغرب.

□□□